



البعد السياسي للهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة

دراسة تاريخية علي ضوء المصادر الإسلامية

دكتورة

عبير زكريا سليمان

كلية الآداب . جامعة بور سعيد

مقدمة:

إذا كان الأنبياء والرسل يهاجرون بأمر من الله إلى أوطان وأقوام بعيدة عن أوطانهم وأقوامهم دفاعاً عن المبادئ والقيم التي بعثهم الله من أجل إرسائها وانتصاراً لها فإن الله سبحانه وتعالى القادر على نصرته في أوطانهم وبين أقوامهم يأمرهم بالهجرة وتحمل المشقة لإرساء قيم هامة تحثيها الرسالات من أهمها ضرورة أن يسعى الإنسان ويصبر ويثابر ويشقى إذا أراد أن يرسى مبدأً أو يساند عدلاً أو يواجه ظلماً دون أن يركن كلية إلى وحي الله ، أو يركن إلى خلاصه هو من الآثام أمام الله دون أن يسعى إلى إرساء تعاليم الله بين الناس ويسهم في خلاص غيره وإرشادهم إلى المنهج الصحيح وهذا ما يترجم مهمة الرسول عامة في أنه مبعوث الله إلى الناس . ولهذا حدد القرآن الكريم منهج الهجرة بشكل عام " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً " (٢) . وهذا دعم لمبدأ السببية وإعمار الكون على هدى منهج الله .

ومن بين ما يمكن استنباطه من هجرة الأنبياء والرسل هي أنه بدون الهجرة واستمرارهم بين أقوامهم وفي أوطانهم ترتبط دعواتهم غالباً بنزعات قبلية أو شعوبية أو عرقية سواء من أقوامهم أو ممن ينتصرون لهم قناعة أو استغلالاً وتكون علي حساب أقوام أو أعراق فتفقد الرسالات بعدها الإصلاحي وتؤدي إلى التباغض والتصارع بدلاً من أن تكون سبيلاً للهداية أو تحقيق قدر أكبر من العدل الاجتماعي ، ويسند انتصار الدعوات إلى الأقوام والشعوب بدلاً من التركيز على ما احتوته من مبادئ وقيم في المقام الأهم ، أو ربطها بتوجيه الله ومساندته لرسله وأنبيائه وتعاليمه .

ومع هذا القدر من الإدراك بأن هجرة الأنبياء والرسل ضرورة يملئها منهج إلهي ، ومع ما في الهجرة من مشقة وإرهاق قد يفوق التحمل البشري ترسيخاً لمبدأ السببية ، إلا أن الكتب السماوية تشير إلى العديد من دلائل المساندة الإلهية للأنبياء والرسل في رحلات الهجرة التي تعرف عند كل نبي ورسول بالمعجزات الإلهية التي أسهمت في تثبيت فؤاد الرسل والتخفيف عنهم، وأسهمت وظلت تسهم في تثبيت فؤاد أتباعهم على طول مساحة التاريخ .

ولعل من أهم وأبرز ما ترسيه هجرة الأنبياء والرسل منذ بدء الخلق ، وعلى ضوء المصادر الإسلامية وفي مقدمتها القرآن الكريم ، أنها تحدد للناس جميعاً وعلى طول مساحة التاريخ الإنساني مفهوم الانتماء الذي يعلي من شأن العقيدة أو الدين على أطر الانتماء الأخرى كالوطن أو القوم . فهجرة أبو الخلق الثاني نوح عليه السلام وتركه أرضه لتغرق ، وتركه أهله ممثلين في ابنه كرمز للعرق أو القوم ، وتفضيله لمجموعة المبادئ والقيم التي أرسله الله لنشرها ، تحدد إطار الانتماء الذي يريد الله أن يهدي الناس إليه . فسفينته التي بناها ومن صاحبهم فيها تجسد إطار الانتماء الإيماني المترجم لمنهج الله .

وهجرة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام تاركاً أرضه ، وتاركاً قومه ممثلين في أبيه كما جاء في القرآن الكريم " لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّا " (٣) ، وتفضيله لمجموعة القيم والمبادئ التي كلفه الله بنشرها بين الناس هي التي أهلته أن يكون في ذاته كما وصفه الله في القرآن الكريم ، ومن خلال رسالته ، أمة بأسرها " إن إبراهيم كان أمة " (٤) ، وهو مفهوم أخلاقي للأمة لا يقوم

على مساحة الأرض أو حجم الشعوب في المقام الأول وإنما على قدر المبادئ والقيم التي تتبناها وتسعى لإرسائها هذه الشعوب .

وهكذا كانت هجرة الأنبياء والرسل حتى موسى ثم عيسى عليهما السلام ، ثم هجرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام (٥) .

على أن هذا المفهوم للانتماء لا يعنى لفظ أطر الانتماء الأخرى أو رفضها فمنهج الإسلام يعلي من شأن ارتباط الإنسان بوطنه والدفاع عنه والاستشهاد في سبيله طالما كان المسلم ينعم بحرية الاعتقاد فيه (٦) ، لكن إطار الانتماء إلى الجنس والعرق وتغليب التعصب له وبه إطار يرفضه المنهج الإسلامي ، ولعل هجرة المسلمين تؤكد هذا البعد (٧) .

الهجرة من مكة إلى المدينة ومدلولاتها:

ارتكزت الرسالة الإسلامية على مقومات أساسية ميزتها عن بقية الرسالات السماوية وهي أنها رسالة شمولية سواء في دعوتها لكل بني الإنسان على طول مساحة التاريخ " إنا أرسلناك للناس كافة " ، " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ، أم لكونها قدمت منهاجاً يشمل كل حركة الإنسان في كافة نواحي الحياة الاجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وليست دينية ثيوقراطية بالمفهوم الديني المنعزل .

وعلى ضوء ذلك فإن هجرة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة قد ارتكزت على أساس هام يميزها عما سبقها من هجرات الرسل وذلك باعتبارها انتقال من مرحلة الدعوة في مكة إلى مرحلة الدولة السياسية التي تتولى أمر نشر الدعوة وحمايتها في المدينة ، فهذا التحول السياسي الذي نتج عن الهجرة وكان الدافع الأساسي لها هو أهم جانب يميزها ويترجم مفهوم الشمولية الذي احتوته .

ولو أن الأمر قد انحصر عند النظر إلى هذه الهجرة على حجم وقدر المعجزات التي أحاط بها الله نبيه خلال رحلة الهجرة لكانت في موازين المقارنة مع ما سبقها من هجرات الأنبياء والرسل في نظر البعض أقل من حيث المسافة التي استغرقتها رحلات الهجرات ، وربما من حيث المعجزات التي أحاط الله سبحانه بها رسله والتي تقاس بحجمها ومعيار زمانها .

وعلى الرغم من الأهمية البالغة التي يشكلها البعد السياسي للهجرة النبوية الإسلامية إلا أن هذا البعد لم يحظ بالاهتمام اللازم عند أغلب الباحثين المسلمين ، واقتصر الأمر على إشارات ضمنية حين الحديث عن قيام الدولة الإسلامية في المدينة ، أو اجتزاء دور سياسي للمرأة المسلمة على ضوء مشاركتها في رحلة الهجرة منذ بيعة العقبة الأولى (٨) .

ومع أن هناك بعض الباحثين الذين تناولوا هذا البعد من خلال دراسة أوضاع المدينة (يثرب) قبل الهجرة ومدى الخلاف والصراع بين فئاتها وشرائعها، أو إلقاء الضوء على دور العامل الاقتصادي في توجيه هذا الصراع بين سكان المدينة من عرب ويهود (٩) ، لكن أحداً لم يركز على البعد السياسي بشكل مباشر ورئيسي من جهة وباعتباره مكون أساسي في المنهج الإسلامي ارتبط زمنياً بالهجرة إلى المدينة من جهة أخرى .

فمع الإلمام بأوضاع مكة وأوضاع المدينة (يثرب) قبل الهجرة تبقى العديد من التساؤلات لماذا لم يهاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع بعض أتباعه إلى الحبشة بعد أن اطمأن لموقف ملكها النجاشي ؟ ولماذا لم يأذن له الله بالهجرة إلى المدينة إلا بعد بيعتين لا بيعة واحدة ؟ ولماذا ارتكزت شروط البيعة الأولى في ظاهرها على جوانب دينية تمس الجانب الأخلاقي في حين احتوت شروط البيعة الثانية على ما يشبه الاتفاق السياسي ؟ ولماذا قبل أهل المدينة (يثرب) شروط النبي صلى الله عليه

وسلم على الرغم من أنه هو الذي سعى إليهم وعرض نفسه بدينه عليهم وكذلك كان الأضعف ولم يقبلوا الشروط التي عرضت عليهم من قریش التي كانوا يسعون لها لحل مشاكلهم ؟ .

وتشكل هجرة المسلمين إلى الحبشة جانباً من الملامح التي احتواها المنهج الإسلامي حيث لم يكن الهدف من الهجرة أو الدافع إليها تحقيق مصالح اقتصادية واجتماعية بل على العكس من ذلك حيث تنازل المسلمون الذين هاجروا عن مصالحهم الاقتصادية وعلاقاتهم الاجتماعية لصالح معتقدتهم الجديد .

والملاحظ أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يكن بينهم عبيداً حيث لم يكن العبيد يملكون حريتهم أو حرية التنقل ، فكانوا في أغلبهم من أحرار قریش وحلفائهم ، كما أن البعض منهم قد اصطحب أسرته وبخاصة بعد أن استشعروا قدراً من الأمان من ملك الحبشة (١٠) .

ويستدل من قضية الهجرة إلى الحبشة أن الهجرة منهج تقره المبادئ الإسلامية بل وتحض عليه إذا تعلق الأمر بنصرة هذه المبادئ ، كما يستدل على أن عدم هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها رغم صعوبة الموقف المحيط به وبصحبه في مكة يؤكد أن الهجرة إلى المدينة كانت بتوجيه من الوحي الإلهي . كما يفهم من عدم هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة أن تطبيق الجانب السياسي الإسلامي كان صعب التحقيق في الحبشة التي كان بها نظام سياسي مستقر ، وأن ملكها قد احتوى المسلمين المهاجرين وأمنهم ، والأمر الأهم أن الهجرة إلى الحبشة كانت ستبعد بالمسلمين عن مقر إرادته الله منطلقاً لرسالتهم في مكة والمدينة (١١) .

مقدمات الهجرة إلى المدينة (يثرب) - بيعة العقبة الأولى.

البيعة في المفهوم الشرعي تعني العهد والميثاق ، وبمشتقاتها اللغوية تشمل البيع أي التنازل عن الشيء وتركه لمن يشتره . وإذا كانت البيعة تعني الموافقة الضمنية أو الصريحة على ما يتفق عليه بين الناس وبعضهم أو من يتولى قضاء أمرهم ، فإن البيعة المحددة في المنهج الإسلامي تكون وفق صيغة صريحة وواضحة على الالتزام بما تحتويه وثيقة البيعة والتي تتوافق مع ما يحتويه هذا المنهج .

ولفظ أو مصطلح البيعة لم يطرح في تاريخ المسلمين في المرحلة المكية ، واقتصر طرحه على لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بوفد أهل يثرب وهو ما يشير إلى أنه مصطلح له دلالة سياسية لكونه قد ظهر فيما يمكن تسميته بإرهاصات البناء السياسي للدولة الإسلامية في المدينة (١٢) .

والآيات القرآنية التي ذكرت لفظ البيعة يمكن أن نستنبط منها أنه ليس لفظاً أو مصطلحاً دينياً فقط بل هو مصطلح سياسي كذلك (١٣) ، فقد تدور ما تمت البيعة عليه في بيعة العقبة الأولى في صورة دينية ، فهي كما حددها "عبادة بن الصامت" رضي الله عنه "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنّي ولا نأتي ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف " ، ورد النبي عليهم " فإن وفيتم فلکم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر " (١٤) ، وقد ورد ذكر هذه الشروط في القرآن الكريم بعد ذلك . ومع ذلك فهي تعني التسليم لله ولرسوله بالسلطة والسيادة " لا نعصينك في معروف " ، كما تفرض أو تحدد نمطاً أو أحكاماً اجتماعية " لا يزنين ولا يقتلن

أولادهن " ، واقتصادية " لا يسرقن " ، ولهذا كانت البيعة الأولى تعبيراً عن التحول الذي أحاط الرسالة الإسلامية وقبولاً بأبعاد هذا التحول .

وقد سبقت هذه البيعة بعام عرض النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام على بعض الحجاج القادمين من يثرب إلى مكة فأسلم ستة منهم (١٥) . وذكر بعض الباحثين أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض نفسه ، كما كان يفعل في كل موسم حج ، على قبائل العرب " وبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم من القرآن فأجابوه فيما دعا إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض من الإسلام وقالوا : إنا كنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمع الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك " ، وكانوا ستة وتم الاتفاق بينهم شفاهة (١٦) .

ومع التسليم بهداية الله لهؤلاء الستة إلا أن هناك عوامل أخرى قد دعتهم إلى سرعة الاستجابة لتعاليم الإسلام ، سواء أكانت عوامل تحيط بهم وبمجتمعهم يثرب أو عوامل تعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه من حيث طريقة عرض مبادئ الإسلام ، وهي في مجموعها ليست عوامل دينية فقط (١٧) .

ويشير البعض إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرض نفسه قبل ذلك بعام على نفر من الأوس قدموا إلى مكة بقصد عقد تحالف مع قريش ضد الخزرج لكنهم لم يفلحوا في إقناع قريش ، ولم يتقبلوا تعاليم الإسلام . ولكنهم ذكروا أمر النبي لقومهم في يثرب بعد عودتهم ، ويعد هذا من عوامل تفهم الستة الذين أسلموا لتعاليم الإسلام في العام التالي (١٨) .

كما أن الصراع مع اليهود الذين كانوا يفاخرون غيرهم بأنهم أهل كتاب ، وكذلك إخبارهم بقرب ظهور نبي جديد ، إلى جانب تحالفهم . أي

اليهود . مع جانب من العرب وهم الأوس بشكل أدى إلى وقوع هزيمة بالخزرج كانت قريبة من هذه الأحداث (١٩) ، كل هذا كان له أثره في تقبل الستة من الخزرج لتعاليم الإسلام في العام التالي .

ولاشك أن تكرار الحرب بين الأوس والخزرج قد أدى إلى ما يمكن وصفه بالفراغ السياسي في يثرب ، وكان الصلح بينهما أقرب بعد أن أنهكتهم الحروب ، لكن أيّاً منهما لم يكن ليقبل زعامة اليهود على بلدهم أو زعامة أي منهما على الآخر . ومهد هذا البعد لإمكانية تقبل الطرفين تولي أحد أشراف الخزرج وهو "عبد الله بن أبي بن سلول" القيادة عليهم نظراً لكونه لم يشارك في الحرب بينهما والتي نال بسببها قدراً من التقدير .

لكن عودة الستة الذين قبلوا الإسلام بعد لقاءهم بالنبي صلي الله عليه وسلم ومبايعتهم له قد عطل قبول تولي "عبد الله بن أبي بن سلول" القيادة في يثرب . ولعل ذلك يوضح مدى ارتباط الدعوة إلى الإسلام ومقدمات الهجرة بالأبعاد السياسية في يثرب كما في مكة أيضاً . كما توضحه طبيعة الحوار الذي دار بين النبي صلي الله عليه وسلم وبين هؤلاء الستة ، فحين التقى بهم النبي صلي الله عليه وسلم سألهم : أمن موالي اليهود ؟ وهل لكم حلف معهم ؟ قالوا نعم ، فقال النبي : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ، فدعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم من القرآن فتأثروا به وقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه ، وصدقوا وأمنوا برسالته (٢٠) .

وذكرت بعض المصادر أن بيعة العقبة الأولى قد اشتملت ، إلى جانب ما ورد نصه في القرآن حول بيعة النساء ، على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وألا ينازعوا في الأمر أهله

وأن يقولوا بالحق أينما كانوا لا يخافون في الله لومة لائم وهي أمور توضح البعد السياسي للبيعة (٢١) .

ومن بين الدلائل كذلك على وجود البعد السياسي كأساس في مبايعة أهل يثرب للنبي صلى الله عليه وسلم ما ذكرته بعض المراجع من أن أعرابياً من أهل يثرب من بني عامر بن صعصعة لما أخبروه بما يدعوا إليه النبي صلى الله عليه وسلم ونقلوا إليه ما جري لهم معه أدرك أن الدين الذي دعاهم إليه هذا النبي لا يقف عند حدود التعاليم الأخلاقية بل هو أشمل وأعم فعلق قائلاً : " لو أنني أخذت هذا الفتى (يعني محمداً صلى الله عليه وسلم) لأكلت به العرب " . كما أن بعض أهل يثرب حين عرض عليهم النبي عليه الصلاة والسلام نفسه ودعوته وأدركوا أبعادها اشتراطوا على النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون لهم الأمر من بعده فرفض طلبهم (٢٢) .

وعلى ذلك فإن مجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في يثرب قد أسهمت جميعها في اندفاع الخزرج والأوس إلى الاشتراك في وفد ضم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، والتقى الوفد مع النبي عليه الصلاة والسلام في موضع قريب من مكة على طريق منى يسمى العقبة (٢٣) ، وتمت مبايعته فيما عرف ببيعة العقبة الأولى (٢٤) .

ولو أن الأمر كان قاصراً على الدعوة الدينية أيضاً لاكتفى الطرفان بإرسال الدعاة إلى يثرب بعد البيعة ، حيث أرسل المسلمون في يثرب رجلاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ومعه كتاب " ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن " ، فاستجاب النبي لهم وأرسل مصعب بن عمير العبدي (٢٥) ، لكن الأمر كان له بعد يفوق هذه الأبعاد .

بيعة العقبة الثانية:

بعد مرور عام على بيعة العقبة الأولى ، ونجاح مصعب بن عمير الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام بعد البيعة ليشرح لأهل يثرب جوانب الإسلام في مهمته ، وفد إلى مكة خمسة وسبعون من أهل يثرب ثلاثة وسبعون منهم من الرجال واثنان من النساء ليلتقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وسبقهم للقاء النبي موفده مصعب بن عمير ليوضح الصورة التي ترك عليها يثرب .

واصطحب النبي عليه الصلاة والسلام في لقائه بهم عمه العباس بن عبدالمطلب الذي كان مازال على دين أهل مكة ، وعقد مع وفد يثرب بيعة العقبة الثانية التي اشتملت على أبعاد هامة تستوجب الوقوف عندها .

فقد علم النبي عليه الصلاة والسلام من مصعب بن عمير أنه كان يؤم المسلمين في يثرب لا لكونه داعية فقط بل لأن فصيلي المسلمين من الأوس والخزرج . وهم حديثوا عهد بالإسلام . لم يكن ليرضى أحدهم أن يؤم فرد منهم الآخر فيما يمكن وصفه بالفراغ السياسي الذي نتج عن هذا الصراع والذي هيا الأمر لدور المسلمين بعد الهجرة (٢٦) .

كما أن اصطحاب النبي عليه الصلاة والسلام لعمه العباس ، الذي لم يكن قد دخل في الإسلام بعد (٢٧) ، لحضور هذه البيعة يؤكد أن المسألة ليست قاصرة على مجرد نشر تعاليم الإسلام فقط بل الأمر أشمل من ذلك وأعم ، وبخاصة أن جانباً ممن شهدوا البيعة أو علموا بها من أهل يثرب ، حتى ولو لم يحضروها ، ممن أتوا إلى مكة ليحجوا على النهج القديم ولم يكونوا ممن اعتنقوا الإسلام (٢٨) .

وحين التقى الجانبان في العقبة في الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة ، وكان اللقاء في سرية تامة بعد أن تسللوا إلى المكان في جنح الليل

، تكلم العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام في البداية وقال " يا معشر الخرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وأنه قد أبي إلا الانحياز إليكم ، والالحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده " فردوا عليه : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فعرض النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام في كلمات ، وتلا بعض آيات القرآن الكريم ثم قال لهم : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فرد عليه "البراء بن معرور" بعد أن أخذ بيده وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرارنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر " . فقام لهم العباس وهو ممسك بيد النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم قام القوم رجالاً ونساءً فبايعوا .

وبعد المبايعة قام أحد المبايعين وهو " أبو الهيثم بن التيهان " وقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (قاصداً اليهود) حبالاً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمهم (٢٩) .

ثم طلب النبي عليه الصلاة والسلام منهم أن يختاروا من بينهم إثنا عشر رجلاً ليكونوا نقباء على قومهم ، فاختاروا له ما أراد (٣٠) ، فقال النبي لهؤلاء النقباء " أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين

لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي (مسلمي مكة) فأبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم ، فقالوا نعم وبايعوه " (٣١) .

ولعل من يدقق في فكرة اختيار النقباء والطريقة التي تم اختيارهم بها حيث لم يختارهم النبي بنفسه أو بالاستعانة بموفده إليهم مصعب بن عمير وهم مسلمون ويخضعون لتوجيهات النبي ولكن ترك أمر اختيارهم للقاعدة العامة من ذويهم ، يدرك المدقق هنا أن هذا ليس من أمور الدعوة الدينية فقط ، فهؤلاء النقباء كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يكونوا مؤهلين بالتالي لتحمل عبء الدعوة ونشر تعاليم الإسلام ، كما لم يطلب منهم النبي عليه الصلاة والسلام ذلك أو يكلفهم به ، بل هو تنظيم يفوق حدود الدعوة الدينية إلى كونها دعوة شمولية لكل جوانب الحياة .

كما أن هذه البيعة قد شملت امرأتين هما نسيبة بنت كعب أم عمارة وهي امرأة زيد بن عاصم وإحدى نساء بني مازن بن النجار ، وقد شهدت بعد ذلك بيعة الرضوان والعديد من المعارك الحربية حيث شاركت في القتال حتى قطعت يدها . والثانية هي أسماء بنت عمرو أم منيع من بني سلمة وهي التي سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن حق النساء في الإسلام ونزل الرد بوحى قرآني في سورة الأحزاب (٣٢) .

وعلق أحد المبايعين من أهل يثرب وهو العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري قائلاً لقومه من الذين بايعوا النبي : يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبائعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ، قال : إنكم تبائعون على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله وإن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . قالوا فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا يا رسول الله إن نحن وفيما ؟ قال الجنة ، قالوا أبسط يدك فبسطها فبايعوه (٣٣) .

وذكرت بعض المصادر أن "أسعد بن زرارة" أحد النقباء خطب في قومه من الأنصار عند المبايعة فقال : يا رسول الله اشترط لربك واشترط لنفسك واشترط لأصحابك ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم ، وأشترط لأصحابي المواساة من ذات أيديكم ، قالوا هذا لك فما لنا ؟ قال الجنة ، قالوا أبسط يدك لنبايعك (٣٤) .

وعلى ذلك استقر العديد من الباحثين إلى أن ورود البيعة في القرآن والسنة يوضح أنها تشكل أصلاً تأسيسياً يقاس عليه في المنهج الإسلامي حيث هي حدث وإطار مرجعي ترد إليه الأمور ذات الصلة ويقاس عليه قريباً أو بعداً (٣٥) ، وأنها بذلك تمثل ركناً من أركان منهج شامل سياسي واجتماعي واقتصادي وديني، وأن البيعتين بهذا البعد تشكل ركيزة هامة في بناء الدولة السياسية الإسلامية في المدينة بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها .

أثر البيعتين علي الأوضاع في مكة ومقدمات الهجرة :

لاشك أن العامل السياسي كان له المقام الأول في مخاوف قريش من عقد البيعة الثانية بين اليثريين وبين النبي عليه الصلاة والسلام حتى لا تقوى شوكة المسلمين بمساعدة أهل يثرب بتشكيل قوة سياسية تهدد كياناتهم السياسي ، كم أن العامل الاقتصادي قد شكل عاملاً هاماً في انزعاج قريش من عقد البيعة الثانية ذلك لأن نجاح النبي في نشر دعوته سيكون له تأثيره علي تراجع الإقبال على العبادة الوثنية والأصنام المحيطة بالكعبة التي تمثل المصدر الهام في موارد قريش (٣٦) . ولذلك سارع بعض من سادة مكة للقاء بعض زعماء يثرب ومن أبرزهم " عبد الله بن أبي بن سلول "

الذي لم يكن على علم بما تم من بيعة ومعه الكثير من حجاج يثرب ممن لم يدخلوا في الإسلام (٣٧) . وأبدى وفد مكة خشية من أن تدفع هذه البيعة أهل يثرب إلى محاربتهم ، فطمأنهم ابن سلول لعدم علمه ، لكن تسرب الخبر حول حقيقة عقد البيعة جعل قريشاً تتأكد من صحة هواجسها وحاولت القبض على المبايعين ، لكنهم كانوا قد غادروا مكة إلا قلة منهم نجحت قريش في أسر اثنين منهم وهم "سعد بن عباد" و"المنذر بن عمر" وكان كلاهما من النقباء الذين تم اختيارهم من مسلمي يثرب ، ونجح المنذر في الفرار في حين ظل ابن عباد رهين الأسر (٣٨) .

وكان إيذاء قريش لسعد بن عباد بداية مرحلة جديدة من أشكال إيذاء المسلمين المكيين ، وقد نتج عن هذه البيعة إثارة حقد قريش على المسلمين فضيقوا عليهم الخناق وأذوهم ونالوا منهم كمحاولة لإضعافهم ، الأمر الذي دفع أغلبية المسلمين مطالبة النبي عليه الصلاة والسلام بالسماح لهم بالهجرة فسمح لهم بالخروج التدريجي إلى يثرب حتى لا تظن قريش إلى ذلك فتمنعهم (٣٩) . ولم يصبح في مكة من المسلمين بعد ذلك إلا المسجونين والعجزة والمرضى إلى جانب النبي وبعض صحبه كأبي بكر وعلي بن أبي طالب ، وكان الجميع يهيئ نفسه للهجرة تاركاً أهله ومصالحه منتصباً لمعتقدده الجديد وهم من وصفهم القرآن الكريم " إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجو رحمة الله والله غفور رحيم " (٤٠) .

وأسهم قرار الهجرة في بروز حجم إيمان أتباع النبي عليه الصلاة والسلام ومدي تمسكهم بتعاليم الإسلام ، ونزلت آيات القرآن التي تصف دورهم وثوابهم عند الله " فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها

الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب " (٤١) . وجاء القرآن بوعد الله للمهاجرين بسعة من الرزق في الدنيا مع الجنة في الآخرة لقاء تركهم لمصالحهم وأموالهم فقال سبحانه: " ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً " (٤٢) . وقال تعالى : " والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين ءاؤوا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم " (٤٣) .

ثم توالي نزول القرآن الكريم ليحدد ثواب أهل المدينة (يثرب) الذين يستوعبون المهاجرين بينهم ليدعوا إلى الألفة والانصهار وتخطي هذه الظروف وثواب الله لهم على ذلك : " والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " (٤٤) .

وحين أذن الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة بنفسه ومعه صديقه أبو بكر كانت قريش تحاول أن تمنعه من ذلك خشية تكوين كيان في يثرب قوامه المبايعين والمهاجرين الأمر الذي يهدد مصالحها الاقتصادية المرتبطة بدورها الديني ، ولهذا زادت من حجم إيذائها بل وسعيها لقتل النبي الذي رأت فيه انتهاء لمشكلاتها وحماية لوجودها . ولو أن الأمر كان قاصراً على مجرد دعوة دينية فقط لكان أغلب القرشيين قد رحبوا بخروج النبي من مكة، ولعل ذلك كان مقترحاً طرحه أحد القرشيين في دار الندوة حين اجتمعوا ليناقدوا أمر هجرة النبي عليه الصلاة والسلام . (٤٥)

وتوضح المصادر الإسلامية أنه بقدر هذا الحجم من التخطيط القرشي لمنع هجرة النبي كانت المساندة الإلهية للنبي وصاحبه منذ ليلة الهجرة وعبر مراحلها حتى وصل إلى المدينة . ولعل صعوبة هذه الرحلة وتأثيرها في الرسالة الإسلامية هي التي دعت المسلمين إلى اعتبارها بداية تاريخهم الحقيقي ، وبخاصة لما أحدثته من تغيير شامل خص الرسالة الإسلامية حيث كانت بداية نشأة الدولة السياسية ، وغلب هذا الحدث في تأثيره أحداثاً إسلامية هامة أخرى كتاريخ مولد النبي أو تاريخ نزول الوحي لارتباطه بهذا البعد الشمولي (٤٦) .

أما عن رحلة الهجرة فقد هاجر النبي عليه الصلاة والسلام في شهر ربيع الأول سنة ١٣ من البعثة النبوية ولم يكن قد مضى على بيعة العقبة الثانية سوى ثلاثة أشهر . فخرج النبي وصاحبه في جنح الليل ، وقرش مجتمعة لبحث كيفية الخلاص منه ، حتى اجتمعوا على رأي " أبو جهل " الحكم بن هشام بأن تختار كل قبيلة شاباً ويقبل عليه الجميع فيقتلوه ليتفرق دمه بينهم (٤٧) . لكن النبي وصاحبه يتمكنان من الخروج من مكة ويفران من مكر قرش أخذاً بالأسباب ونيلاً لحماية الله سبحانه ، وبعد عناء ومشقة وصل النبي إلى موقع قباء على مدخل المدينة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، ونزل في ضيافة أحد شيوخها وهو كلثوم بن الهدم ، وجمع ممن اجتمعوا حوله حين وصوله من المهاجرين ومسلمي المدينة الذين عرفوا بالأنصار . واختط النبي خلال أيام قليلة أقامها في ضيافة هذا الشيخ مسجداً لقبيلته بني عمرو بن عوف (٤٨) .

ولعل أول شئ واجهه النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة هو تحدي " عبد الله بن أبي بن سلول " الذي كاد أهل يثرب أن يولوه ملكاً عليهم قبيل مبايعتهم للنبي ، فحين بركت ناقة النبي في المكان الذي بني

عليه المسجد النبوي، وهو مكان اختاره الله فيما يفهم من قول النبي لأتباعه حين أرادوا توقيف الناقة "دعوها فإنها مأمورة"، علق ابن سلول على ذلك بأن قال للنبي: "يا هذا اذهب إلى الذين غروك وخذعوك وأتوا بك فانزل عليهم ولا تغشنا في ديارنا"، ورد عليه سعد بن عباد. وهو من الخرج مثله. موجهاً قوله للنبي: "يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شئ فإننا كنا اجتمعنا على أن نملكه علينا وهو يري الآن أنك قد سلبته أمراً قد كان أشرف عليه" (٤٩). ولاشك أن ذلك التحدي هو تحد سياسي وليس تحدياً دينياً حيث لم يكن ابن سلول صاحب فكرة أو دعوة، ولو أن مقصد النبي كان محصوراً في إطار الدعوة الدينية لتركوا الأمر لابن سلول وكسبوا وده، وهذا يحدد طبيعة الدور الذي كان للنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين في المدينة.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يدخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يوم الجمعة ليخطب في أتباعه خطبة الجمعة وتكون بداية تلقينهم للتعليمات والتوصيات التي يجب اتباعها، وهي بهذا البعد تشير إلى طبيعة العلاقة بين قائد وأتباعه (٥٠).

وكان من أولويات الأمور التي قام بها النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة في السنة الأولى من الهجرة هو صياغة دستور ينظم العلاقة بين سكان المدينة من مهاجرين وأنصار ويهود ووثنيين، ولعل هذا الأمر من أبرز الدلالات على الدور السياسي الذي تولاه، أو الذي أراد الله أن يتولاه النبي عليه الصلاة والسلام فور هجرته إلى المدينة. فقد احتوت بنود هذا الدستور (الصحيفة) على تولي النبي. بعد مبايعة أهل المدينة من المسلمين. الزعامة السياسية، ففي البند الأول من هذه الصحيفة "هذا

كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس (٥١) .

وبعد أن حددت بنود الصحيفة كافة شرائح المهاجرين وقبائل الأنصار جاءت البنود التي تنسق العلاقة بينهم ، ولعل من أبرز هذه البنود ألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل منبغي منهم ، أو ابتغي ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

ومن الواضح أن النبي عليه الصلاة والسلام قد استطاع من خلال هذا الدستور أن يحدث لحمة اجتماعية تعلو على الخلافات القبلية حيث انصهر المسلم من الخزرج مع غيره من الأوس مع غيرهم من المهاجرين وربطهم بميثاق أو عقد اجتماعي يرتبط بمعتقدهم الذي يفرض قبوله كتلة واحدة ، وأن التخلي عن جزء منه يفسده ، فبدأ التباري بينهم في فهم جوانب دينهم مما كان له الأثر في التقارب الاجتماعي بينهم ، وأصبحت الغلبة لمعيار إسلامي يحدده إطار تميز اجتماعي " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " و " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " ، وتفاعل اجتماعي اقتصادي يحث عليه القرآن " وأولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم " (٥٢) .

أما علي صعيد علاقات المسلمين في المدينة مع غير المسلمين ، وبخاصة اليهود ، فقد حدد البند الأول من هذا الدستور بأن اليهود وغيرهم شركاء معهم في كون الجميع أمة واحدة ولكن في إطار احترام العقد

الاجتماعي الذي يضع اليهود في مصاف التابعين للكيان الجديد حيث نص على أنه " من تبعنا من يهود فإن له النصره والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم " ، وهنا حدد هذا الدستور مفهوم التبعية في كونها تعبير عن العدل الاجتماعي الذي تتكفل به القيادة وتلزم به أتباعها من المسلمين (٥٣) ، وفي إطار التزام مطلق بحرية الاعتقاد (٥٤) .

وفي المقابل أفرد الدستور بعضاً من الواجبات مقابل الحقوق على اليهود وغيرهم من غير المسلمين وهو أنهم يشاركون المسلمين في الإنفاق ماداموا محاربين " على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن من بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم "(٥٥).

وحددت الصحيفة (الدستور) الوضع الاجتماعي والسياسي بشكل عام في المدينة في ظل وحدة المواطنة " من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن أي أمر يحدث داخل المدينة وفق بنود الصحيفة فإن مرده إلى الله ولمحمد الرسول والقائد ، وكذلك الأمر في العلاقات الخارجية " فإنه لا يجبر مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً " (٥٦) . أما عن المسلمين خارج المدينة والذين كانوا مازلوا موجودين في مكة فإن دستور الدولة الإسلامية لا يكفل لهم الحماية إلا إذا هاجروا إليها وأصبحوا في كنفها ولكن إن طلبوا النصره فلهم ، وقد حددت آيات القرآن الكريم ذلك لتكون أساساً للحقوق السياسية في النظام الإسلامي " إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين ءاؤوا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير " (٥٧) .

وحددت الصحيفة كذلك إطار الانتماء الملزم للكيان السياسي لدولة المدينة، وكذلك مسئولية الأفراد في إقرار النظام ومراعاة حقوق الجار والصحة والقربة، والعلاقة بين الفرد والدولة ، وأصبحت دولة المدينة ذات صبغة جديدة هي الصبغة الإسلامية التي تهتم بحرية الاعتقاد وترعى هذه الحرية مع ضوابط اجتماعية ، ويكون المرجع في مدى الالتزام أو الخروج على هذه الضوابط إلى الله والرسول القائد المكلف بتطبيق تعليمات الله (٥٨) .

وفي ظل هذه المبادئ التي تناولها الدستور هاجر الكثير من مسلمي مكة إلى المدينة حيث كان أغلبهم في السنة الأولى من الهجرة بعد إعلان الدستور ، ثم أخذ عدد المهاجرين في التدرج . ويراعي أن أغلب المهاجرين كانوا من قريش ثم عدد أقل من الحلفاء ثم من الموالي ، وتصدر بنو هاشم . رهن النبي عليه الصلاة والسلام . أغلب مهاجري قريش (٥٩) ، كما لحق بهم مهاجري الحبشة حيث انتقلوا إلى المدينة لينعموا بدولتهم الجديدة (٦٠) .

وأمضى النبي عليه الصلاة والسلام خمس سنوات في ترتيب هذه الدولة الناشئة دون أن يكون الاهتمام الأول في ذلك هو الدعوة ، بل ارتكز الاهتمام على تثبيت من أسلم منذ ما قبل الهجرة ، ودعوة من يسلم من أهل المدينة ، وصهر المسلمين من مهاجرين وأنصار في نظام اجتماعي واقتصادي حددته الرسالة الإسلامية ، وتقريب المسلمين وغير المسلمين في إطار من احترام الحقوق والحريات وأولها حرية الاعتقاد .

والملاحظ أن السور القرآنية التي نزلت في المدينة قد ركزت في أغلبها على تحديد المهام التي كلف بها المسلمون لتطبيق تعاليم دينهم في الحياة بمفهوم شمولي متممة بذلك السور التي كانت في الفترة المكية والتي ركزت

على بناء عقيدة المسلمين ، ولعل ذلك يتواءم مع مراحل حياة المسلمين بين مكة والمدينة ، وأن الهجرة كانت مفرقاً واضحاً (٦١) .

وقد جاء التطبيق العملي على صعيد العلاقات الخارجية لدولة المدينة بعد سنوات تأمينها من الداخل في أول احتكاك مع قريش في مكة في السنة السادسة من الهجرة حين خرج النبي عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه يريدون العمرة ، فلما وصلوا إلى الحديبية في طريقهم إلى مكة ، وكانوا محرمين ملبين ، أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان ليوضح لقريش هدفهم من المجئ وهو العمرة لا القتال ، فاحتجرت قريش عثمان وأشيع أنه قتل ، فطلب النبي عليه الصلاة والسلام البيعة من أصحابه علي التهيؤ لأي احتمال بما فيها القتال لحماية مبعوثه أو الانتقام له ، فلبى الجميع المبايعة على الجهاد أو الموت، ولم يتخلف عن المبايعة سوى رجل واحد هو جد بن قيس . وجاء القرآن الكريم ليبارك هذه المبايعة ويحدد أبعادها فقال تعالى : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً" (٦٢) .

ولعل هذا الأمر يعد سنة أو منهجاً في أخذ الرأي حين الملهمات ، واستفتاء الناس عند أي أمر من كباثر الأمور أو صغائرها ، ويشكل هذا الأمر جزءاً هاماً من البعد السياسي الإسلامي .

وقد ترتب علي هذه البيعة ، التي أكدت الترابط بين المسلمين وقائدهم ، أن سعت قريش لعقد صلح الحديبية الذي وإن بدا في بعض بنوده تنازلاً من قيادة المسلمين إلا أنه يعد من جهة المسلمين تغليباً للسلم والصلح على القتال ، ومن جهة قريش فيؤكد أنها اعتبرت الكيان الإسلامي كياناً يتفق معه بعد أن كانت تستخف به ، أو بمعنى أوضح أنه كيان سياسي يحسب حسابه بين القوى الأخرى في جزيرة العرب (٦٣) .

وهكذا كانت الهجرة إلى المدينة حدثاً واضحاً في تاريخ المسلمين ، فوضع المسلمين في مكة يختلف كلياً عن وضعهم في المدينة بعد تحولها إلى دولة سياسية، وسور القرآن الكريم تواكب وتوجه هذا التحول من سور مكية تسهم في بناء العقيدة إلى سور مدنية تحدد أبعاد الجانب التطبيقي لهذا المنهج . أي أن الهجرة قد رسخت مفهوم الالتزام بمنهج الدعوة إلى التوحيد والبناء العقيدي في البداية ثم الجهاد الذي يركز على حماية الدعوة وفتح الطريق لها بعد ذلك (٦٤) .

الهوامش :

(١) الهجرة لفظ أو مصطلح يطلق على الترك أو التخلي عن الشيء ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه كما في الحديث الشريف ، وهي بهذا المعنى مطلقة من حدود الزمان والمكان . والهجرة النبوية ، كما هي هجرة الأنبياء والرسل جميعاً ، تتعلق بترك الموطن والانخلاع عن المكان بالتحول عنه إلى موطن آخر ابتغاء مرضاة الله رغم التعلق بالموطن الأصلي .

(٢) سورة النساء ، آية ٩٧ .

(٣) سورة مريم ، آية ١٩ .

(٤) سورة النحل ، آية ١٢٠ .

(٥) د.زكريا سليمان بيومي : مفهوم الانتماء في الفكر الإسلامي على ضوء القرآن الكريم ، مجلة المنار الجديد ، القاهرة ، رمضان ١٤٢٥ هـ / أكتوبر ٢٠٠٥ م .

(٦) في لحظة خروج النبي عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجراً نظر إلى البيت الحرام وقال في مكة : " والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت " ، وهو حديث يرويه الزهيري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنظر : مسند الإمام أحمد ، موقع الإسلام على الإنترنت ، وهناك العديد من الأحاديث التي تربط المسلم بوطنه .

(٧) السيد جعفر مرتضى العامل (محقق) : الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، بحث على الإنترنت في ٢٣ شعبان ١٤٢٦ هـ ، ج ٣ ، الباب الثالث ، منشور على موقع نسناس .

(٨) منال يحيى : بيعة النساء ، نقطة التحول في السيرة السياسية للمرأة في صدر الإسلام ، بحث منشور على الإنترنت بعنوان :

women and politics early Islam

(٩) سكن يثرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا الأوس والخزرج اللتان كانتا من مهاجري اليمن القحطانيين ، وإلى جانبهم كان اليهود بطوائفهم الثلاثة بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع الذين هاجروا من شمال الجزيرة ، أنظر ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣١٢ وما بعدها .، د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، الإسكندرية ، ب. ت. ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .، محمد العيد الخطراوي : المدينة في العصر الجاهلي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط ١ ، سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٤٧ ، ٤٨ وصفحات أخرى .

(١٠) ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، تراث الإسلام ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ب. ت. ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ٣٢٣ . ٣٣٠ .، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دراسة وتحقيق : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط ١ سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ج ١ ، ص ١٥٩ . ١٦١ ، ج ٢ ، ص ٨٢ .، د . إلهام البابطين : الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي ، الرياض سنة ١٤١٩ هـ ، ص ٧٤ .

(١١) ومما يؤكد ذلك هجرة أغلبية المسلمين إلى المدينة ولم يتبق إلا الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب حيث كان الرسول "ص" ينتظر أن يأتيه الإذن من الله تعالى بالخروج وحينما أراد أبو بكر أن يهاجر قال له الرسول " على رسلك فإنني أرجو أن يؤذن لي " وفي قول آخر " لاتعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً " . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد، ج ٢ ، ب. ت. ، ص ٥٢ .، وقد ورد عن الرسول "ص" أنه قال " أريت دار هجرتكم سبخه بين ظهرائي حره " وفي قول " أريت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان " ابن قيم الجوزية : نفس المصدر والصفحة .، النجم عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ، تحقيق : فهد محمد

شلتوت ، مطابع جامعة أم القرى ، سنة ١٤٠٣هـ ، ج ١ ، ص ٣٥٧، ٣٥٢، ٣٥٣ .
، الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج ١ ، ص ٨٧ ، موقع الوراق على الإنترنت .

(١٢) نزلت الآيات التي تشير إلى البيعة في سورة الممتحنة واحتوت على صيغة بيعة العقبة الأولى والتي سميت ببيعة النساء " يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك علي أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبایعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم " آية ١٢ .، وانظر أيضاً منال يحي: المرجع السابق .

(١٣) تضمنت سورة الفتح . وهي سورة مدنية . آيتين حول البيعة التي نزلت في الحديبية ، الأولى نزلت حول الذين بايعوا النبي " ص " على الوقوف معه ضد المشركين وتسمى ببيعة الرضوان " إن الذين يبایعونك إنما يبایعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً " . والأخرى حول ما تم من صلح " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبایعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً " أي أن البيعة تمت حول موازنة ومناصرة واتفاق وقتال وهي في مجموعها معاني تخرج عن نطاق الدعوة الدينية بالمفهوم الضيق .

(١٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٣٣ نص البيعة .، د . محمد الطيب النجار : القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، القاهرة سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ١٢٨ . وهذه الآية نزلت بعد ذلك في بيعة النساء في المدينة ، وهناك تلاقي في النص جعل الباحثين يسمونها ببيعة النساء .، د . حسين بن صالح الحميد : بين بيعتي العقبة والرضوان ، بحث منشور على الإنترنت في ٢٢ شعبان ١٤٢٦ هـ ، ويرى البعض أن تسميتها ببيعة النساء راجع إلى أنها قد خلت من الدعوة إلى الجهاد ، وهذا يعد حصراً للجهاد في نطاق مفهوم ضيق ، أنظر حول ذلك د . أحمد فؤاد سيد : تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، مكتبة الدعوة ، القاهرة سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م ، ص ٨٩ .

(١٥) يراعى أن الحج كان مستمراً إلى مكة منذ إبراهيم عليه السلام حتى تحول الناس عن عبادة الدين الذي نزل على إبراهيم إلى عبادة الأوثان ، ويبدو أن تاريخ البيعة في سنة ١١ للبعثة النبوية بعد أن فقد الرسول " ص " زوجته وعمه وبذلك فقد السند الداخلي ، فأرسل له الله أهل يثرب ليكونوا السند الخارجي . حسين مؤنس : تاريخ قریش ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(١٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط ٦ ، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٥ سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٤٦ ، يذكر أن هؤلاء الستة بقي منهم واحد في المدينة وهو " جابر ابن عبدالله بن رثاب " وعاد الخمسة إلى مكة واشتركوا في بيعة العقبة الأولى سنة ١٢ للبعثة النبوية / ٦٢١ للميلاد . صفى الرحمن المباكفوري : الرحيق المختوم ، دار الفكر ، طبعة سنة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، بيروت . لبنان ، ص ١٢٩ .

(١٧) حين سمع النبي " ص " بقادم إلى مكة من العرب له اسم وشرف دعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده ، فقدم مرة . وهو سويد بن الصامت . فدعاه النبي إلى الإسلام فقال له سويد لعل ما معك مثل الذي معي ، فقال له النبي ما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان (يعني حكمة لقمان) ، فقال النبي اعرضها علي فعرضها عليه فقال له النبي الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله علي هو هدى ونور ، وتلا عليه من القرآن ، فقال سويد : قول حسن وآمن برسالة النبي ، وقدم يثرب على قومه ، ولم يلبث أن قتله الخزرج وتلفظ في موته بالشهادتين ، وكان هذا قبل يوم بعث الذي اشتعلت فيه حرب الأوس والخزرج ، أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٢٥ . ٤٢٧ ، . البلاذري : أنساب الأشراف ، موقع الوراق على الإنترنت ، ص ١٠٣ . حول

تفاصيل يوم بعث آخر حلقات الصراع بين الأوس والخزرج قبل الإسلام أنظر محمد العيد الخطراوي : المدينة في العصر الجاهلي ، ص ١٧٩ ، ١٨١ .

(١٨) وقد قدم وفد من يثرب . قبل قدوم السنة . برئاسة " أبو الحيسر أنس بن رافع " من بني عبدالأشهل يريدون الحلف مع مكة ، وكان فيهم رجل يسمى "إياس بن معاذ " فلما عرض عليهم النبي " ص " نفسه قال إياس " يا قوم هذا والله خير مما جنتم له " ولكنهم لم ينتبهوا إليه " ولم يشك أحد في إسلامه ، وكان ذلك أيام وقعة بعث بين الأوس والخزرج . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ٥٠ . الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(١٩) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ . الطبري : تاريخ الرسل ، ج ٢ ، ص ٨٦ . محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٩٦٨م ، ص ٢٠٠ . د . أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، دار الفكر العربي ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م ، ص ٢٢٩ .

(٢٠) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ . الطبري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢١) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٤٧ .

(٢٢) السيد جعفر مرتضي العامل (محقق) : صحيح سيرة النبي الأعظم ، ج ٣ ، الباب الثالث .

(٢٣) تبعد العقبة ميلين عن مكة في طريق منى ، وعندها مسجد عرف بمسجد البيعة ومنها ترمى جمرة العقبة . أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لبنان ، ب. ت. ، ص ١٣٤ . محمد بن اسحاق الفاكهي : أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق : عبدالمك بن عبدالله بن دهيش ، ط ١ ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، مطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .

(٢٤) كان من أبرز رجال هذه البيعة من أهل يثرب أسعد بن زراره وعباده بن الصامت ، وكان نص البيعة " بايعنا رسول الله على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنّي ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، وقال الرسول إن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتكم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر " . ، وقد وردت أسماء المبايعين . أنظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٣٤ . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ٥٠ . صفى الرحمن : الرحيق المختوم ، ص ١٢٩ .

(٢٥) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، أرسله الرسول " ص " إلى يثرب لنشر الإسلام . وكان منزله على أسعد بن زرار . وعرف بالمقرئ وقد عاد وبشر الرسول " ص " بنجاحه في مهمته قبل بيعة العقبة الثانية . أنظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٣٤ . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ٥١ . محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٥٢ .

(٢٦) د. أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٣٠ ، ويراعي أن النبي قد أرسل إلى مصعب بن عمير بأن يخطب الجمعة في المصلين وأن يبتعد عن يوم السبت الذي يجتمع فيه اليهود . ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٣٥ . محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٥٣ .

(٢٧) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٤١ . ، الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ .

(٢٨) ابن هشام : نفس المصدر ، ص ٤٤١ . د . محمد الطيب النجار : القول المبين ، ص ١٣٠ .

(٢٩) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٤١ ، ٤٤٢ . ، أحمد بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، عبد العزيز بن عبد الله الباز ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ب. ت. ، ج ٧ ،

ص ٢٢١، عمر بن فهد : إتحاف الوري ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، د . محمد الطيب النجار : المرجع السابق ص ١٣١ ، محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٥٠ .

(٣٠) وهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس تم انتخابهم في الحال ، وردت أسمائهم في عدة مصادر . أنظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ٥١ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٣١) الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ ، عمر بن فهد : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٣٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٥ .

(٣٣) محمد هادي اليوسفي الغروي : تاريخ الحج ، بحث منشور على موقع نسناس على الإنترنت ، وقد رفض النبي حماس العباس بن عباد بن نضله في طلبه الحرب حيث قال للنبي حين طلب منه ومن قومه الرحيل " إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيفنا ، ورد النبي عليه بقوله لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا ، قال العباس فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ، ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٤٨ ، الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ، محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٥٠ .

(٣٤) الفاكهي : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٢ ، عمر بن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) منال يحي : بيعة النساء ، بحث سبق ذكره .

(٣٦) حسين مؤنس : تاريخ قريش ، الدار السعودية للنشر ، ط ١ ، سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، عدة صفحات .

(٣٧) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ، . ابن القيم الجوزية : زاد المعاد ، ص ٥١ ، . صفي الرحمن : الرحيق المختوم ، ص ١٣٩ .

(٣٨) ابن هشام : نفس المصدر والصفحة ، . ابن قيم الجوزية : نفس المصدر والصفحة ، . عمر بن فهد : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٣٩) عمر بن فهد : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٥٣، ٣٥٤ ، . وقد ورد به عن النبي "ص" أنه قال " إن الله قد جعل لكم إخواناً ، ودار تأمنون بها ، فمن أراد الخروج فليخرج فإن البلاد قريبة ، وأنتم عارفون بها ، وهي طريق عيركم إلى الشام "

(٤٠) سورة البقرة ، آية ١٢٨ .

(٤١) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٤٢) سورة النساء ، آية ١٠٠ .

(٤٣) سورة الأنفال ، آية ٧٤ .

(٤٤) سورة الحشر ، آية ٩ .

(٤٥) إدراكاً من قريش بخطورة البيعتين قامت بعقد برلمان في دار الندوة حضر فيه جميع رؤساء القبائل القرشية ليدرسوا وضع النبي وعمل خطة للقضاء عليها وعلى دعوته . حول تفاصيل ذلك أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، . صفي الرحمن : الرحيق المختوم ، ص ١٤٣ وما بعدها .

(٤٦) إذا كان الأخذ بالتاريخ الهجري قد جاء رسمياً في عصر عمر بن الخطاب فإن الإشارة إليه أو استخدامه صراحة قد كان في عصر النبي حين طلب من علي بن أبي طالب أن يؤرخ رسالة بالسنة الخامسة بعد الهجرة ، أنظر الكتاني : التراتيب الإدارية ، ج ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . لبنان ،

ب. ت. ، ص ١٨١ ، الطبري : تاريخ الرسل ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ، ، العسقلاني : فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢٢٩ .

(٤٧) ابن هشام : السيرة ج ١ ، ص ٤٨٠ وما بعدها ، ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفدا عبدالله القاضي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٤٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، ، ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . لبنان ، سنة ١٣٧٧هـ ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .

(٤٩) المجلسي : بحار الأنوار ، ج ١٩ ، ص ١٠٨ ، وعبدالله بن أبي بن سلول هو رأس المنافقين في المدينة وكانوا يجتمعون لديه ، وهو القائل في غزوة المصطلق " ولئن رجعنا إلى المدينة لنخرجن الأعز منها الأذل " أنظر ابن اسحاق : الروض الآنف ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ، موقع الإسلام على الإنترنت .

(٥٠) حول نص الخطبة أنظر ابن هشام : السيرة ج ١ ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ، يلاحظ أن الرسول " ص " دخل إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول وهو يوم مولده ويوم وفاته .

(٥١) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٥٩ ، ، أبو الحسن علي الحسيني الندوي : السيرة النبوية ، دار الشروق ، جدة ، ط ١١ سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٥٨ يشير فيها إلى أن الأوس والخزرج من القحطانية ومسلمي مكة من العدنانية ، وفي إسلامهم والمؤاخاة بينهم واشتراكهم في المجتمع الجديد يعد تفتيت للعصبية القبلية والصراعات الجاهلية التي دارت قبل ذلك بين القحطانيين و العدنانيين .

(٥٢) سورة النور ، آية ٢٢ .

(٥٣) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٦٠ .

(٥٤) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، نص واضح في الصحيفة . محمد حميدالله: مجموعة الوثائق ، ص ٦١ .، محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٢٢٥، ٢٢٤ . يشير صفى الرحمن في كتابه إلى أن حادثة الإسراء والمعراج جاءت قبل البيعة الأولى ، وأن سورة الإسراء فيها إشارة إلى انتقال السيادة الدينية من اليهود إلى المسلمين ، وفيها إشارة أيضاً إلى أن الرسول " ص " سجد له ملجأً ومستقر لبث دعوته . الرحيق المختوم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٥٥) محمد حميد الله : نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(٥٦) محمد حميد الله : نفس المرجع ، ص ٦٣ ، وقد حددت الكثير من المصادر اهتمام النبي " ص " بحدود دولة المدينة " لكل نبي حرم وحرمة المدينة " أنظر: السمهودي : وفاء الوفا ، بيروت سنة ١٩٥٥م ، ج ١ ، ص ٩٢ .، وكان هذا في السنة الأولى من الهجرة .

(٥٧) سورة الأنفال ، آية ٧٢ .، وأنظر أيضاً د . أحمد الشريف : مكة و المدينة ، ص ٢٣٠ .

(٥٨) د . أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٥٩) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٣١٩ .، ابن الأثير : أسد الغابة، ج ١ ، ص ٤٠٨ .، د. إلهام الباطين : المرجع سابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٦٠) البلاذري : أنساب الأشراف ، موقع الوراق على الإنترنت ، ص ١١١

، الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٦١) السور المكية ٨٦ سورة والصور المدنية ٢٨ سورة ويلاحظ هنا أن بناء العقيدة أكبر وأطول وأن التكاليف التطبيقية الحياتية بعدها تكون أقل وأيسر على من اكتمل إيمانهم . ومن أهم هذه التعاليم فرض الصوم والزكاة وفرض القتال أيضاً فنزلت الآية " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير " .

سورة الحج ، آية ٣٩ .، " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله " سورة الأنفال ، آية ٣٩ .

(٦٢) سورة الفتح ، آية ١٨ .، وأنظر أيضاً د . حسين صالح الحميد : بين بيعتي العقبة والرضوان ، بحث سبق ذكره .

(٦٣) حول بنود الصلح أنظر ، محمد حميد الله : المرجع السابق ، ص ٧٧ وما بعدها. وقد نظر الدكتور حسين مؤنس إلى علاقة المسلمين بقریش نظرة شمولية ، حيث رأى أن غزواتهم وسراياهم واتفاقاتهم مع القبائل في الحجاز لم تكن أعمال منفصلة بل كانت حلقات لسلسلة سياسية واحدة تنتهي حتماً بوضع قریش في موضع لا تستطيع معه إلا التسليم أو الاستسلام الذي تحقق بفتح مكة . تاريخ قریش ، ص ٣٦١ .

(٦٤) لعل في ذلك رد على بعض ما ورد عن المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن في كتابه تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريذة ، د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٦ وما بعدها .

